



من التاريخ العالمي للموسيقى

منذ سالف العصور ، أجمع الأقدمون ، على أن الموسيقى حكمة ، يمتزج فيها التاريخ الطويل ، بتاريخ المجتمعات الإنسانية ، فلم تعرف الموسيقى قط بصفة متكاملة وشاملة ، ويعود ذلك لتشعبها وتعدد مفاهيمها ؟ وتحضرنا هنا مقولة لعالم الاجتماع الفرنسي جان جاك روسو التي وصف فيها الموسيقى بقوله هي : الفن الذي يجمع الأصوات بصفة عذبة للسمع .

الأستاذ / بوعزارة عبد القادر

ولا يمكن أن نعرج لنقطة أخرى دون أن نستشهد بقول مختص في علم اللغات ف :
نيكولا روي " VICOLAT
RUWET " الذي " يعتبر أن
الموسيقى لغة تشرح نفسها
بنفسها .
إن الموسيقى التي لا تحرك
المشاعر ولا تعرف المفاهيم

العالي . إن معظم التعريفات
المقترحة ، تنسى أو تتجاهل
كون الموسيقى نمطا و
طريقة اتصال ، بيد أنه لا
يمكن أن ننكر أنه يوجد
اتصال فريد من نوعه بين
الشخص الذي يعزف
الموسيقى وبين الشخص
الذي يستمع إليها .

اقترحت في الساحة الفنية
حاليا وهي للباحث " مولز
" MOLES " مؤذاهما " أن
الموسيقى هي مجموعة
أصوات تسمع وليس
بالضرورة نتائج صلبة " و
قد أخذ عن المؤلف " رولان
دوكاندي " ROLAND DE
CANDE في مؤلفه التاريخ

ومن هذا المنطلق يمكننا
الوصول إلى نتيجة هامة
محتواها أنه لا الموسيقى
الدينية ولا موسيقى
الدرامية ، ولا العسكرية
تمتلك تلك القدرة كي تنساب
إلى الأذن بطريقة عذبة .
وفي هذا المجال نتذكر تعريفا
من أحسن التعريفات التي

الجديدة هي عاجزة عن تحليل أو وصف نفسها .

- و يقول الفيلسوف روجي فارودي أن " تعريف العقيدة كما هو الشأن بالنسبة للفنون ، ليس بحجم المفاهيم ولكنه عمل تطبيقي " مثلما يمكن ملاحظته أن هذا النوع من المقولات تقلل من شجاعتنا للبحث عن تعريف جامع و مانع ، أين تعرف كل أنواع الموسيقى القادمة .

و هو تساؤل يطرح نفسه : في كثير من الأصوات الطبيعية أو المصطنعة من طرف الإنسان منذ عدة قرون ، بأي رمز أو دلالة يتضح لقدام من كوكب آخر مثلاً : معرفة ما يدعى الآن بالموسيقى ... هذا إذا افترضنا أننا وجدنا التعريف المراد للموسيقى ، أو بصورة أخرى كيف نستطيع برمجة كمبيوتر كي يستطيع أن يفرق بين الموسيقى و الأصوات الأخرى . و نستحضر هنا قول جون بول سارتر J.P.SARTRE الفيلسوف الفرنسي " كان يخيّل لي أن الموسيقى جميلة بكما بعينين ملأى بالعانى - في بدايتها لم تكن الموسيقى سوى عملية مضيئة للتكيف مع شروط الصراع مع الحياة .

و عندما نبحث عن طور الموسيقى يمكن القول أنه نجم عن عدة عوامل منها تطوّر المجتمعات الإنسانية على مراحل متعاقبة ، بقيت فيها الموسيقى كامتداد و سند ، تشهد على التطور الذي عرفته هذه الشعوب ... و بقيت مرتبطة بكل ما

يتعلق بالسحر ، الدين ، الفكر ، العلم ، السياسة ، و كل ما يرتبط بالمجتمعات الإنسانية .

- في السالف العصور تحقق انتشار الموسيقى من حيل لآخر عن طريق التقليد الشفهي ثم تواصل عن طريق تدريس نظامي .

و في العقود القديمة و حتى إلى يومنا هذا ما زالت بعض المجتمعات تعتبر الموسيقى كمفتاح لكل المعارف و القيم الإنسانية . و لكي يتكون الشخص في كل الميادين ، لا بد عليه بادئ ذي بدء أن يدرس بدقة الموسيقى و أسسها الطبيعية . فالحوصلة إذن أن أي تغيير يطرأ على مادة الموسيقى تنجر عنه نتائج وخيمة بالنسبة للمجتمعات ... فنحن لا نستطيع أبدا التغيير من طبع الموسيقى دون المساس باستقرار النظام " مقولة هي للفيلسوف اليوناني أفلاطون ، تستحق كل التأمل في مدلولاتها .

- منذ ملايين السنين استلهمت الموسيقى فعاليتها من الذوق الإنساني الرفيع في نظره للحب و الجمال و الدين و السحر و العلم و المجالات العسكرية ، كما أنها كانت تتوجه على وجه الخصوص للآلهة و الملوك . بيد أن اليونانيين هم أول من سمح للموسيقى أن تتبلور فأصبحت فنا و طريقة وجود و تفكير .

لقد كشفت عن جمالها و رونقها لأول جمهور واع اجتماعيا و مقدرا لقيمتها و جمالها الفني .

و قد لعبت دورا مهما - أكثر منه أهمية في الوقت الحالي - لكن انعدام توفر الكتابة الموسيقية آنذاك حال دون وصولها إلينا بكل أمانة وصدق .

- و لا يمكننا أن نتجاهل الدور الذي لعبته الموسيقى في حياة القدماء من اليونان و الرومان ، فقد كانت حاضرة في الأوقات الأكثر حرما ، و الأكثر أهمية . كانت حاضرة وقت الحرب وقت السلم ، حاضرة في الأتراح ، و حاضرة في الأفراح حيث الحفلات الدينية و الأعراس .

و نحن نعلم أن الموسيقى هي امتياز لدى سلالة البشر دون غيرها من المخلوقات الأخرى التي تعيش على البسيطة . إن غريزتنا هي التي تأهلت للغناء فالطبيعة تزخر بعدة منابع صوتية جذابة ، فمن زقزقة العصافير إلى خرير الجداول إلى حفيف الأشجار اشتق الإنسان لنفسه تعابير موسيقية ترافقه في رقصاته و تكشف عن الذوق الموسيقي الذي لا يمكنه أن يوجد إلا لدى الإنسان .

- و نحن إن أردنا التعمق و البحث عن أصل الحضارة الموسيقية عبر التاريخ فلن نجد لها إلا عند الرجل البدائي المفكر منذ 30.000 إلى 40.000 سنة خلت و لكنه من الجائز بل و من المحتمل أن الرجل البدائي -الموسيقي (HOMO MUSICUS) و نقصد هنا الذي عرف الموسيقى قد ظهر قبل الرجل البدائي المفكر

(HOMO SALIENS) بيد أنه لا يمكن الجزم في هذا الرأي ، إذ لا توجد أي معطيات علمية دقيقة لتسمح لنا و لو بطريقة احتمالية معرفة الحالة التي ظهرت أو نشأت فيها الظواهر الموسيقية الأولى . إن المولى عرّ و جل قد خص الإنسان بالعقل ، و منه أحاسيس و مشاعر ، بل و ميزه عن الكائنات الأخرى بالنطق الذي لا يصدر إلا عن عقل و ليس عن مجرد أحاسيس .

و لذلك فإذا كانت الألفاظ هي من اخترع الإنسان فإن تاريخ البشرية تميز بسلسلة من المراحل لم تكن فيها اللغة المكتوبة سوى مجرد ألفاظ و إيماءات ... أو إشارات أو حركات أو همهمات و مع هذا نكاد هناك اتصال بين الناس إما عن طريق الإشارة أو الحركة ، و أكبر الظن أن تعلم طريقة بسيطة للكلام قد تتطلب آلاف السنين . ثم مرت حقبة أطول قبل أن يكتشف الإنسان كيفية تدوين كلامه بواسطة الكتابة . و قد اتخذ اختراع الموسيقى سبيلا مماثلا لهذا فلا يوجد في الطبيعة نغم موسيقى منسجم بل كل ما يوجد فيها هو مجرد ضوضاء أدخلت عليها قليل من الأصوات ، التي انسابت إلى الأذن كتغريد بعض الطيور و خرير الجداول و غير ذلك . و لذلك يمكننا بسهولة التمييز بين الصوت الجميل الذي يتردد في الأذن و يحرك المشاعر و بين الضوضاء التي

تصمم الأذن وتجعلها تنزعج منها.

و يمكن عرض تفسير لهذا فنقول أن الأصوات جميعها نتيجة لذبذبات ، أو دقات في الهواء يحدثها اهتزاز جسم ما . فإذا أحدثت هذه الذبذبات في فترات منتظمة تنتج عنها صوت جميل معبر نسميه " نغمة موسيقية " أما إذا حدثت في فترات غير منتظمة أو بعبارة أخرى بصفة فجائية نتج عنها صوت عشوائي أقل دقة فإننا نسميه ضوضاء .

وقد دلت البحوث العلمية على أن لكل نغمة موسيقية عددا محدودا من الذبذبات في الثانية ، و لكل زيادة فيعدددها ينجم عنه ارتفاع النغمة الموسيقية و يعبر هذا المفهوم بمصطلح " الدرجة " تستطيع أذن الإنسان أن تسمع لكل نغمة يتراوح مجالها بين 20 ذبذبة في الثانية و 20.000 ذبذبة في الثانية ، فإن قلت عن العشرين و فاقت 20.000 ذبذبة في الثانية لم يعد في مقدور الأذن الإنسانية أن تلتقطها . غير أنه في مقدور " الكلب " مثلا أن يسمع أكثر من 20.000 ذبذبة في الثانية ، كلما يوقع ذلك الكاتب و الترجمس شارنر " Woter Jims Charner " في مؤلفه " الموسيقى " .

و لتبيان ذلك تجريبيا صنعت صفارة تطلق نغمة تحوي أكثر من 20.000 ذبذبة في الثانية يسمعها الكلب و لا يسمعها الإنسان.

فإذا أردنا تفسير علميا للموسيقى نقول أنها عبارة عن مجموعة أو نوع من الأصوات التي ينحصر عدد ذبذباتها بين 20 و 20.000 ذبذبة في الثانية ، كما يضيف نفس المؤلف كما أنه في مقدور رجل العلم - و قد يكون أصمًا أن يعرف بين النغمة الموسيقية و الضوضاء باستخدام طريقة آلية لقياس عدد الذبذبات في كل حالة .

و الراجع أن أولى الآلات الموسيقية التي صنعها الإنسان كانت من الخشب أو المعدن أو الجلد المشدود ، و إنها كانت تحدث أصوات عن طريق الضرب عليها بعضا ، و ليست هذه الأصوات بالضرورة أصواتا موسيقية .

الرجل البدائي في إفريقيا و في أجزاء أخرى من العالم يصاب بحالة شبه الجنون من دق الطبول و غيرها من آلات الدق .

الآلات إذا تحولت إلى مجرد دق عشوائي تصدر عنه ضوضاء أو صرخات غير معبرة موسيقيا إلا إذا أدخل عليها عامل يبحث على التنوع الذي يتجاوب مع الحس الرهيف للإنسان .

و يطلق الموسيقيون على هذا العامل اسم " الإيقاع " و الإيقاع هو تبادل الارتكاز و عدم الارتكاز على فترات تزداد أو تقل إنتظاما .

ففي مقدور الضارب مثلا على الطبل أن يخرج من الضوضاء أصواتا إيقاعية باستخدام آلة موسيقية

بدائية لا تحدث إلا صوتا واحدا ، و لعل أبسط مثلا على ذلك ، الطبول البدائية المصنوعة من جلد مشدود على جفنة خشبية تضرب بالعصا ، و يصدر الصوت المنتظم بالدق عليها في فترات منتظمة تتخللها فترات سكون أطول أو قصر من المعتاد ، أو لرفع الصوت تارة أو يخفضه تارة أخرى .

و يمكن لكل شخص أن يتثبت بنفسه من صحة ما نقول بإجراء تجربة بسيطة كان يضرب بقبضة يده على سطح المنضدة التي يجلس أمامها و يختلف الناس اختلافا بينا في شعورهم الإيقاعي ، فكما تجد هذه الحاسة لدى بعضهم ضعيفة النمو ، قد تجدها في بعضهم الآخر قوية . هكذا كانت حالة التطور الموسيقي الذي عاش فيه الرجل البدائي منذ آلاف من السنين عمل فيها على تطوير شعوره الإيقاعي لدرجة عالية جدا . و يمكن أن يقال أن الشعور الإيقاعي في بلاد أوروبا الشرقية أكثر نموا من الشعور بالنغم الموسيقي ، و لهذا كانت موسيقى أوروبا الشرقية في نظر الغربي غير متنوعة النغم ، و لكنها جميلة جدا و ذات إيقاع معقد .

و قد نتج عن هذا في السنين الأخيرة و بعد انقضاء فترة طويلة عن تطور النغم أن رجع الموسيقيون الغربيون مرة أخرى إلى الجانب الإيقاعي من الموسيقى ، و

هذا يفسر تأثر الموسيقيين المعاصرين بالموسيقى الزنجية الراقصة المعروفة باسم " الجاز " و الإيقاعات الشرقية التي وصلت عن طريق موسيقى الرقص الروسية و الإسبانية .. و لما اكتشف الرجل البدائي النغم الموسيقي كان ذلك الاكتشاف حادثا مهما من حوادث تاريخ الجنس البشرية ، و ما من شك في أن الوصول إليه كان بطيئا على درجات كأغلب الاكتشافات الهامة .

فقد اكتشف في أماكن متفرقة عن بلاد العالم ، رجل ملهموز أفذاذ ، ذو دقة في السمع ، فهم إن نفخوا في قرن بقرة أو في قصبه مجوفة ، يخرجون أصواتا شديدة الطرب مما حفزهم على الاستمرار في إجراء تجاربهم إلى أن صنعوا منها أنابيب و أبواقا بسيطة .

و ليس من العسير في شيء أن يصبح الشخص مكتشفا و أن يسير العبقري قدما نحو المجهول الذي لم يسبقه آلية أحد من قبل .

و قد تطاولت الخرافات في الماضي عن مكتشف الموسيقى ، هذا الشخص المجهول الذي لم يكن يعرف أين يمكن أن يقود الجنس البشري بمثل هذا الاكتشاف و ما كان يعلم أنه بهذا الصوت الجميل الدافئ المنبعث لأول مرة من البوق الذي نفخ فيه كان أول لبننة لبناء النغمة الموسيقية

